قراءة في قصّـة راشـدة (*)
أو "البطلة الضحيّة وابنـها العجيب"

الدكتور خالد عيقون

1 – متن القصّة

كان في قديم الزمان عبد صالح، يقضي جل وقته متعبدا، في خلوته، يصوم النهار ويقوم اللّيل، ويستقبل الوافدين للتبرك به، وكان يعيش في سعادة وهناء مع زوجته وابنته العذراء راشدة الطاهرة العفيفة. كانت تعيش في ظلّ عائلتها يسودها الوئام وكانت جميلة مهذّبة بارة بوالديها، تخدم والدها العجوز، وتساعد أمّها في أشغال البيت، كان والدها ينصحها محذرا من أذى الأشرار المترصدين لكل جميلة، ويخشى عليها حيلهم خصوصا بعد وقوع بعض الفتيات في شراكهم.

فوجئ العبد ذات يوم بإبليس في هيأة آدمي يقتحم خلوته كأحد زواره وفي يده عظم آدمي يتحدّاه أن يحيي صاحب هذا العظم ببرهانه وبركاته، وبذلك يصدق كل ما يقال عنه. فأجابه بهدوء ووقار: إنّ هذا شأن من شؤون الله، وما أنت إلا شيطان رجيم. أسرّها إبليس في نفسه، وانصرف منكسر الخاطر، وقرّر الانتقام ومحاولة الكرة مع ابنته، بإيقاعه في ورطة تصرفه عن عبادة ربّه وتدخل في حزبه، فحفر حفرة في الطريق الذي تمر به راشدة، ودفن فيها العظم وأهال عليه التراب، ثمّ اختفى الشيطان كأنّ الأرض ابتلعته.

فوجئ الناس في اليوم الموالي بظهور شجرة عجيبة نادرة زكية رائحتها، زاهية أزهارها، شهية ثمارها، ممتدة ظلالها، ونادى المنادي محذّرا بأن لا تمس أغصانها ولا تقطف أزهارها ولا تذاق ثمارها، لأنها شجرة مقدّسة مباركة، وأصبحت ملاذا للزوّار يقصدها النّساء والفتيات كل مساء يوم خميس للتبرك والدّعاء.

ذات يوم خرجت العذراء راشدة في كامل زينتها في موكب النّساء لزيارة الشجرة، فدفعها الفضول في غفلة منهن فاقتطفت غصنا من شجرة فانسكب منه سائل

كالحليب فذاقته فإذا هو أحسن من السكر والزبيب فابتلعته فأحسّت به يسري في عروقها.

العرف شداتو نســـــــل كبّب عليها بحليب زيــن
ذاقت منه جاها عجـــــب أحلى من السكر والزبيب

وبعد ثلاثة أشهر وقعت في البلاء وبدأت أمارات الحمل تظهر، دون أن يمسها بشر فبدأ بطنها في الانتفاخ، ويسيل من فمها الريق، وصارت من المتوحمات، أصيبت بالهلع والقنوط من المصير المحتوم الذي ينتظرها، والتزمت الصمت وسلّمت أمرها لخالقها، وهي تتألّم بما حلّ بها من مصائب.

صرخت أمّها في وجهها مستنكرة ومعتقدة أنّها ارتكبت خطيئة، ولم تقبل منها أي عذر، رغم تأكدها أنها لم تفارقها لحظة، فهي تنام إلى جنبها، ولا تخرج إلا بصحبتها، وأرسلت إلى والدها. ولما وصل قرّر في الحال ذبحها، فلا هي ابنته ولا هو أبوها، فتضرعت إليه أن يتريث وأن يتأكد وأن يستفتي العلماء والفقهاء المتخصصين فانطلق مسرعا إلى مسجد القرية، واستفتاهم في أمر ابنته فأجابوه في الحين: حكمها الرجم حتى الموت، ولا تأخذك رحمة ولا شفقة في تنفيذ حكم الله، ولن يريح بالك ويطمئن نفسك إلا إزهاق روحها.

يجاتس إروح أذيســـأل ذي الجامع أندا اتزالان
يوفا الطلبة أم لهـــــلال النّسخة قورعن ذييـــــن
ينطق غورسن ألحباب أرثييد أيثما ســـلجواب
وجبنثيد الطلبة ســـلحال أثزريض أليذاين أكنمل
إذ ثمـــديث يفّـــغ ووال ذلموتيـــــس أكيهنيـــن

ونادى المنادي بحلول أجل تنفيذ الحكم بحزم وصرامة، زاعما أنّ الخطيئة يتجدد عارها وأن لا شيء يمحوها ويطهّرها غير الدم المسفوح، وما الرّجم سوى شفاء للنّفس من درن الرذيلة. سيقت الضحية إلى مكان الرّجم لتنفيذ حكم الله فيها وكانت محاطة بجموع بعضهم تفيض من عيونهم دموع الرحمة والشفقة، وبعضهم تبرق من عيونهم شرارات النقمة والشماتة، كانت السّهام تخترقها اختراقا.

حانت اللّحظة الصّعبة، وهمّوا برجمها ففوجئوا بصوت عجيب منبعث من الجنين الكامن في بطنها، يشهد لصالحها: والدتي لم ترتكب فاحشة، ولِمَ يؤخذ البريء بذنب الآخر؟ ثمّ تعزّز الموقف بنزول جبريل عليه السلام ونصحهم بالتريّث ريثما تضع حملها فلا يعقل أن تزهق روح صبي بريء ويؤخذ بخطيئة والدته والتي هي في الحقيقة لم ترتكب خطيئة ولا فاحشة، وسوف تعلمون. بعد حين استجابوا لأمره ورضخوا لحكمه، فانسحبوا عائدين، كفّت الألسنة عن القذف، وصاروا يترقّبون بشوق ميلاد هذا المخلوق العجيب، فقام البرهان على عفّة هذه المرأة، فصارت محترمة مصونة موقّرة.

ينطق الصبيان غورســـن أشــعيم ذشــو ثخــذم
أيمــا أيغــر أتســثنغــم أجهلن ويــذ أرنســين
لمــر خرســوم ثصبـــرم أرلموثيس أرثتســحارم
يبضد جبرائيــل غورســن ييوضـــد يناياســـن
أسليغ مي ادقصدغ غورون أسليغ سبنادم أريمعيــن
ثقشــيشــث ماراتســثنغــم إصبيان ذشــو إثخــذم[1]

وبعد تسعة شهور وُلد صبيّ كالبدر في نوره وجماله وأصبح مصدر سعادة لوالدته وجدّه وسكّان القرية كلّها، وأقيمت الأفراح لمدّة سبعة أيّام.

إوصفيث ربّي يتســنور يوغال أعزيز أفلوالدين
فرحن إييس ألا ذخـــام فرحن العبــاذ كامليــن
يمّاس ثفرح تسعى أميس يزقا يلا سي ذي سيــس

ولمّا صار صبيًا حمله جدّه إلى مسجد القرية ليتعلّم، فأظهر نبوغًا وذكاء خارقًا إلى حدّ أن فاق كلّ القراء والمتعلّمين، فازداد تعلّق والدته وجدّه به، وصار قرّة العين

أدّاو الصبي للفقيه يفســرّ في الفن ومن واليــه
صابوه أورد من كلّ جهــة وقاري وفات القاريــن[2]

وذات يوم بينما كان الصبيّ يرتع ويمرح زلّت به قدمه وهوى نحو أعماق البئر فأسرعت والدته لإنقاذه وشرعت تناديه بلوعة واحتراق: ردّ الجواب يا ابني العزيز،

فإنّي حزينة وقلبي يتقطّع على فراقك، فيجيبها: اصبري يا والدتي فهذا محتوم وقضاء الله وقدره فابنك انتهى وصار في عداد الميتين ولا ردّ لقضائه.

أسرعت راشدة إلى والدها في خلوته، وسقطت منتحبة في حجره، فاندهش من وجهها الحزين وعينيها الفائضتين بالدموع فأنعت إليه خبر وحيدها وهي تنوح: ماذا بقي لي بعد وفاة ابني العزيز؟ فأجابها لا ينفع يا ابنتي إلا الصبر، فهو خير معين، فهذا ما حدّده الله له من العمر.

أيلي إقلهـــان ذصـــبـــر إمّيم أعزيـــزن أثنايـــس
ذيا أســـديحود ذالعمـــر وينا كني أديزلن غورس

2 – تحليل القصّة

المقطوعة الأولى: قصة العبد الصالح والزائر الشرير

تستهل القصة بعرض الموقف الافتتاحي الذي نجد فيه وصفا للعبد الصالح الذي يقيم في خلوة ثمّ تستعرض أفراد الأسرة أب وأم ووحيدتها راشدة، وهم يتمتعون بسعادة واستقرار، ثمّ تركز على وصف الشخصية الرئيسية "راشدة". ورغم أنّ الوضع العام لا يشكّل وظيفة تربوية إلا أنّه يهيئ ذهنية المتلقي، للوظائف الأساسية التي سينهض بها البطل، وتخلق لديه توقعًا أو تنبؤًا لكي تكون المفاجأة أو الصدمة أوقع في النفس.

وتنتظم وظائف المقطوعة على الشكل الآتي:

<u>المسار الوظائفي</u>: ملخص الجمل السردية

تحذيـــر: (يحذر الأب ابنته راشدة من أذى الأشرار).

مواجهة: (يتجلّى إبليس في هيئة آدمي ويتحدّى العبد أي يحي عظم ميت).

انتصار: (يكشف العبد زيفه ويطرده فيختفي إبليس بعد أن يردم العظم في حفرة).

تأسّست وظائف المقطوعة في قالب ثلاثي تربطها علاقة استتباع استهلّت بوظيفة تحذير الأب لابنته من أذى الأشرار تلتها وظيفة مواجهة بفعل تدخّل الشخصية الشريرة إبليس، واختتمت بوظيفة انتصار العبد الصالح على خصمه وطرده.

تقوم علاقة التوافق بين الأب باعتباره ممثلا لسلطة أبوية وبين ابنته راشدة باعتبارها خاضعة لهذه السلطة وملتزمة بها بهدف الحفاظ على التوازن والاستقرار.

تنشأ علاقة التضاد بين الأب باعتباره المساند يهدف إلى الحفاظ على القيم الإيجابية، ويتمتع بسلطة أبوية ويسعى إلى حماية الأسرة خصوصا ابنته راشدة، وبين إبليس باعتباره عنصرًا دخيلا ممثلا للقيم السلبية ويهدف إلى تنغيص الحياة السعيدة للأسرة.

يؤدي ظهور الشخصية الشريرة إبليس – في بداية القصة – إلى نجاحه في إحداث اضطراب في محيط الأسرة بدءًا بالأب، ثمّ ينتقل إلى ابنته راشدة ثمّ يعم القرية كلّها، وهو ما يمثّل اختبارا تأهيليا خرج منه الأب وابنته منتصرين. ويمكن توضيح بنية الشخوص في الشكل الآتي:

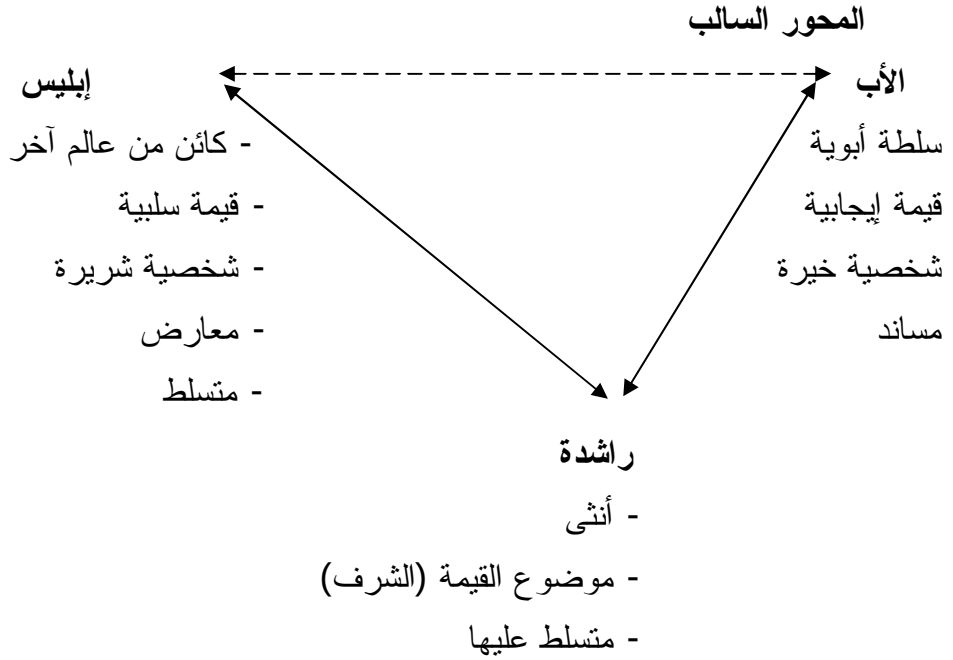

الشكل رقم (14)

المقطوعة الثانية: قصّة راشدة البطلة الضحية

ارتكزت المقطوعة على الوظائف الآتية:

المسار الوظائفي: ملخص الجمل السردية

تحـــــذيـــر: (تحذير بعدم لمس أوراق الشجرة العجيبة أو قطف ثمارها).

مخالفة التحذير: (خالفت راشدة التحذير وذاقت من حليب أغصان الشجرة).

وقـــــوع أذى: (ظهرت علامات الحمل على راشدة وهي غير متزوجة).

وســــــاطـــة: (يتوسط الأب لدى الفقهاء لإيجاد مخرج لابنته).

عـــــقـــــاب: (يصدر الفقهاء فتوى بقتل راشدة رجما فتساق للتنفيذ).

القضاء على الأذى: (ينطق الجنين من بطنها ويتجلّى جبريل فيشهدان على تبرئة راشدة).

انبنت المقطوعة على قانون وظائفي تركيبي ثلاثي تربطها علاقة استتبا ع، ووردت الثلاثية الأولى مقابلة للثلاثية الثانية على الشكل الآتي:

تحذير / مخالفة التحذير / وقوع أذى

وساطة / عقاب / القضاء على الأذى

تنشأ علاقة تضاد بين راشدة بسبب مخالفة التحذير فذاقت من حليب غصن الشجرة بهدف معرفة سرّ الشجرة وبين أبيها وأمها باعتبارها تسببت في اختلال الوضع الناتج عن مخالفة التحذير. فحدث انقلاب في مسار الشخوص الأب والأم من المساندين إلى المتواطئين المعارضين، فوقعت راشدة في الأذى ضحية.

مما يفسح المجال لظهور وظيفة وساطة فيقوم الأب بالبحث للحصول على المعرفة، وتتمثّل المعرفة في الإطلاع على حكم من خرق قوانين المجتمع، وبذلك يصدق عليه قول ليفي ستراوس: « إنّ المجتمع الإنساني مزدوج ينقسم إلى بعدين دلاليين: الطبيعة ونواميسها وغرائزها، الحضارة بوصفها جملة من القوانين والنواهي»[3].

وبموجب مخالفة استجابة لغريزتها، تقاد الفتاة راشدة إلى العقاب رجما حتّى الموت، وهو ما يندرج في إطار الاختيار الرئيسي. وهو التحوّل الذي بلغ قمة التأزّم في مسار القصة، لقد كانت راشدة مهددة بخطر الموت والانفصال عن أهلها.

مما يفسح المجال لظهور وظيفة وساطة ثانية يتدخّل جبريل كشخصية جديدة تعمل على تطوير أحداث القصة باعتباره عنصرا دلاليا جديدا قادم من العالم، يمثل القيم الإيجابية وباعتباره المانح. ويقوم بتقويم الافتقار وإصلاح الإساءة فيعيد التوازن والاستقرار إلى محيط الأسرة.

وهو في موقف قوة لأنّه ممثّل ومفوّض من العالم الآخر فيقوم بفعل المخلص المنقذ، وتتمثل مهمته في تبرئة راشدة وتنبيه الجميع إلى أخطائهم، ففازت راشدة بثقة وحماية كائنات العالم الآخر.

المحور الموجب

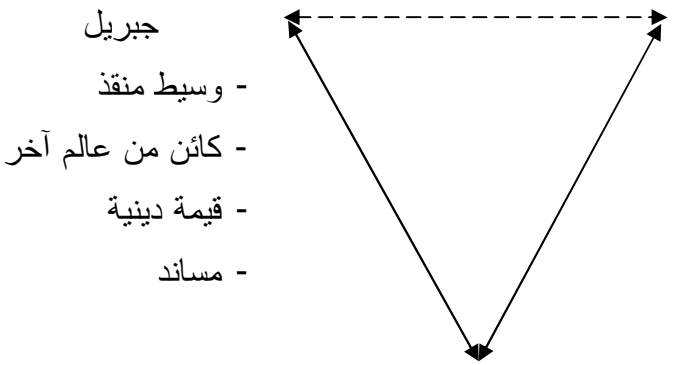

الشكل رقم (15)

المقطوعة الثالثة: قصة ولادة الطفل العجيب وإنقاذ أسرته من الأذى

تستهل المقطوعة بولادة الطفل في ظروف عجيبة مدهشة كنموّه العقلي السريع، وتمتعه بقوة خارقة للعادة في تلقي العلم والمعرفة وتفوقه على أنداده مما جعل المقطوعة تنطلق بأهم عناصرها الاستراتيجية وتتابعت وظائف المقطوعة على الشكل الآتي:

المسار الوظائفي: ملخص الجمل السردية

عـــلامـــــة: (يولد الطفل وينشأ في ظروف عجيبة).

تلقي مساعدة: (يكتسب البطل المعرفة، ويتفوق على أنداده).

انتصـــــار: (ينقذ الطفل أسرته من الأذى فيعود الاستقرار إليها).

وقوع أذى: (يسقط الطفل فجأة في البئر ويقع في المكروه).

وساطـــــة: (تسرع والدته إلى جدّه لإنقاذه).

فشـــــل: (يعجز الجد عن فعل شيء ويكتفي بالرضا بالصبر).

تنسجم وظائف المقطوعة في وحدتين ثلاثيتين تربطهما علاقة استنتاج وردت الأولى مقابلة للثانية، حيث عمّت مظاهر الفرحة والسعادة التي تجاوزت حدود الأسرة، لتعم جميع أهل القرية، ثمّ حدث في نهايتها انقلاب جذري وانتهت بحل مأساوي تراجيدي، فبينما كان الطفل يمرح ويفرح زلّت به قدمه فهوى نحو البئر فلقي حتفه.

تقدّم الحكاية عالم الدنيا على أنّه مليء بالأخطار والمشاكل والصراعات التي تسببت فيها قوى الشر بينما قدّم العالم الآخر على أنّه مثالي يقدّم المدد والعون لإعادة التوازن والاستقرار عبر التواصل بين العالمين.

ويعتمد ظهور الشخصيات في القصة على العلاقات الآتية: الاستبدال، والتضاد، التوافق وجاءت منسجمة مع المفهوم الذي يرى «إنّ الشخصية تقدّم نفسها من خلال ما تمثله من قيم خلقية(*) بالقياس لغيرها أي أنّها تعرفه بتقابلاتها مع غيرها من الشخوص الأخرى »(4).

ونلاحظ أنّ التعاقد الأوّل يتم بكشف عن طرفين الأب وابنته راشدة ثمّ يختفي الطرف الأوّل ليستبدل بطرف آخر هو والدة راشدة ويأتي التعاقد الثاني لتتم عملية استبدال أم راشدة بابنها وتتكرر عملية الاستبدال في القصة على الشكل الآتي:

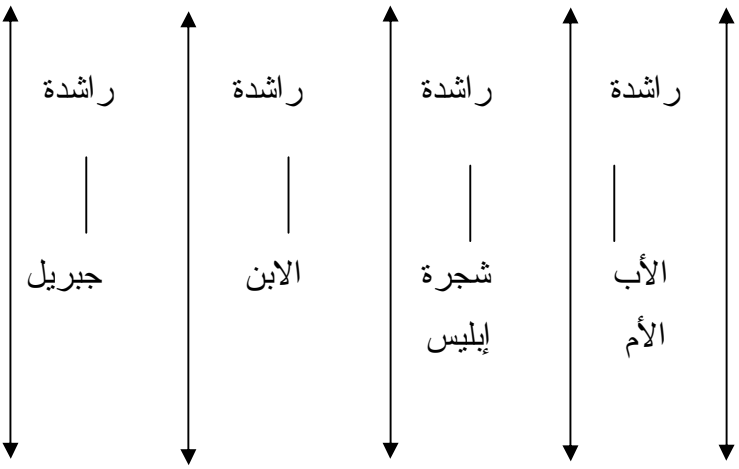

الجدول رقم (21)

تشكّلت القصة من ثلاثة تعاقدات يأتي التعاقد الأوّل بين الأب باعتباره مسؤولا ومكلفا بحماية ابنته من أذى الأشرار وبين راشدة باعتبارها موضوع القيمة (المرأة والشرف) باعتبارها ملتزمة بتطبيق ما تؤمن به. لكن محاولة تنفيذه قد تتسبب في اختلال التوازن الذي تحياه الأسرة بسبب مخالفة راشدة.

يقرر الأب أن يبرم تعاقدًا ثانيًا مع الفقهاء بالمسجد يسعى بموجبه إلى الحصول على المعرفة وتتمثل المعرفة في الإطلاع على حكم من خرق قوانين المجتمع، وبموجبه تقاد الفتاة راشدة إلى العقاب بالموت رجما. وذلك من أجل القضاء على النقص، لكن محاولة تنفيذه يكون سببا في إبرام تعاقد ثالث، بفصل تدخّل جبريل باعتباره ممثلا للقيم الإيجابية وهو مفوض من العالم الآخر، فيقوم بتقويم الافتقار وإصلاح الإساءة فيعيد التوازن والاستقرار إلى محيط الأسرة.

انبنت الوضعية الختامية على نفس الوضعية الافتتاحية وذلك بمراعاة موضوع القيمة (المرأة والشرف) حيث تمّ استعادة الثقة والتعاقد بين الطرفين، ويعمل كلّ واحد على تنفيذه والالتزام به، ورضى الوالد الصالح على ابنته حيث تمكّن من استرجاع ابنته وشرفه وكرامته ومكانته الاجتماعية.

وهكذا نلاحظ أنّ القصة خضعت لمراحل ثلاث: استهلت بحالة أمن استقرار فاضطراب ثمّ استقرار وهو ما يؤكده تودوروف (TODOROV) في قوله: « إنّ القصة المثالية هي التي تبدأ بوضعية هادئة تجعلها قوة ما مضطربة ينتج عن ذلك حالة اضطراب ويعود التوازن بفعل قوة موجهة معاكسة التوازن الثاني يشبه التوازن الأوّل لكن ليس مماثلين أبدا »[5] ويمكن توضيح ذلك في الجدول الآتي:

استقرار	عملية تغيير	اضطراب	عملية إعادة الاستقرار	استقرار
1	2	3	4	5

الجدول رقم (22)

3 - التناظر في روايات القصّة

وإذا ما عدنا إلى النصّ في صورته الأصلية في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

هذي قصّـــة بحديثهـــــا في كتاب كبير قريتها
عن ابن عباس رويتهـــا وابن صاحب علايني

نكتشف أوجه التماثل والتخالف بين قصّة راشدة وقصّة مريم على كلّ المستويات: الاستهلال والاختتام والشخوص الأساسية والأمكنة والأحداث الخارقة، ممّا يمكن توضيحه فيما يأتي:

تستهلّ الرواية الشفوية العربية العامية والأمازيغية بالتركيز على شخصية العبد الصالح معتكفًا في خلوته متفرّغًا لعبادة ربّه، وتستهلّ القصّة القرآنية الواردة في سورة مريم عليها السلام بالتركيز على شخصية النبي العجوز زكريا معتكفًا في محرابه متضرعا إلى ربّه[6]**.ثمّ تنطلق أحداث القصّة الشفوية مركّزة على شخصية الحسناء العذراء راشدة الطاهرة العفيفة، فيتجلّى لها الشيطان في هيئة آدمي ونصب لها شجرة عجيبة، فتناولت من ثمرها، وأصبحت حاملاً، ولم يمسسها بشر، ويمكن توضيح أوجه التماثل في الجدول الآتي:**

القصّة القرآنيّة	زكريا	مريم	غلام زكي (عيسى)	ملك	القوم	شجرة النخيل
القصّة الشفوية	العبد الصالح	راشدة	صبيّ كالهلال	إبليس	القوم	شجرة عجيبة مقدّسة
	اسم +	اسم +	اسم +	اسم +	اسم +	اسم +

الجدول رقم (22)

في النصّ القرآني حملت مريم بفعل معجزة من الله، حيث أرسل إليها ملكًا تجلّى لها في هيئة بشر **[فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ...& قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً....& فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ... &]**[7].

وقد اقتضى الأمر ألا يمسها أحد، وفازت بنفسها الطّاهرة المقدّسة، فنجت من دنس يتهدّد المرأة في كلّ لحظة، وصارت قدّيسة القديسات، وفتحت الطّريق لممارسة تميّزت بها المسيحية من بعد، فنذرت العذراء نفسها للرّب، فكانت فضاءً للتجلي المقدّس[8].

تستنكر الأمّ ما رأته وتوبّخ ابنتها "راشدة" على ما اعتقدت أنّها خطيئة ارتكبتها، ويصدر الاستنكار في النصّ القرآني من قوم مريم، ويمكن توضيح أوجه التماثل بين النصوص الثلاثة الأمازيغي والعربي العامي والنصّ القرآني في الجدول الآتي:

القصّة العربيّة	قالت	يمّاها	واش ذا	واش	عملتِ	يا راشدة
القصّة الأمازيغية	تنطق	يمّاس	ذاشو ذوا	ذشو	ثخذمض	أراشدة
	فعل ماض	اسم	فعل أمر	استفهام	فعل ماض	اسم منادى

الجدول رقم (23)

النصّ القرآني: [... **يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً & يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً**] (9).

4 - الصور والدلالات

رغم أنّ محور الرواية الأساسي ينبني على مريم العذراء وعيسى عليه السلام الذي هو محور أساسي للديانة المسيحية، إلا أنّ النصّ الحكائي بنوعيه الأمازيغي والعربي يخلو من المكوّنات المسيحية كالإنجيل، الصليب، الكنيسة، الرهبان، وعقيدة التثليث: الله، الابن، الروح القدس.

وفي مقابل ذلك يزخر النصّ بالصور والدلالات الإسلاميّة، مثل القرآن والحديث والمسجد والهلال وعقيدة التوحيد والرسول محمد والصحابة والخلفاء الراشدين، والفقهاء وطلبة القرآن، وهذا ليس خاصًا بهذه القصّة، وإنّما تكاد تتواتر مع كلّ القصص الأمازيغية لأداء وظيفة أو تبليغ رسالة، حيث حوّرت عن أصلها لتناسب مشاعر المتلقّين من المسلمين. ويمكن توضيح هذه المكوّنات فيما يأتي:

أ – مكوّن عقيدة التوحيد:

سبحان الواحد الوحيد يفعل في ملكه ما يريد
ما عندو لا شريك ولا عبيد مفتاح قلوب العاشقين

ب – إبراز شخصية الرسول محمد والخلفاء الراشدين.

صلّوا يا إسلام على الرّسول بحر الجود وبحر الفضول
أبو بكر وعمر وزيد قول عثمان وعلي والعشرة المجاهدين

جـ - إبراز العلماء والفقهاء والطلبة:

سل الطالب يعمل الطّريق سل العلماء كاملين
صاب سادات من أهل الكبار فوق الزرابي جالسين

د – تمجيد القرآن الكريم والإعجاب الشديد بخطوطه:

أفلاس إدينزل القرآن تشبح ألا اذلكتيباس

هـ - مدح الطلبة وهم ممسكون بالمصاحف باعتبارهم حرّاس الدّين:

يوفا الطلبة أم لهلال النسخة قرعن الدين

و – الإشادة برموز الإسلام الهلال والمسجد:

قالت صبي مثل الهلال يضوي بنجوم زاهرين

وبذلك يصدق عليها قول بروب: «إنّ المبنى الحكائي يتحوّل إلى مبنى آخر، عن طريق تنويع أحد عناصره، ولذلك فمن اللازم دراسة جميع العناصر في حدّ ذاتها، ومعظم العناصر التي تؤلّفها مرتبطة بالدين والثقافة والعادات، ويجب تناول مسألة معرفة الكيفية التي تألّق بها كلّ مبنى حكائي وماذا يمثّله»[10].

وإذا ما عدنا إلى القصّة في صورتها الأصلية في العهد الجديد فمن بين الأناجيل الأربعة المعترف بها هناك إنجيلان يضمّان ولادة يسوع وطفولته، هما: إنجيل متّى وإنجيل لوقا. ولم تحظَ مريم العذراء إلا بقدر ضئيل من الاهتمام، حين بلغت أشدّها واستوت عذراء مخطوبة ليوسف النّجار، فنفخ فيها الروح فحملت وخلدت، فقد طغت عليها قصّة مولد المسيح والسنوات الأولى من طفولته، لكن مريم كانت في خلفية جميع الروايات[11]. في حين اضطلع القرآن بمريم اضطلاعا سابقا بالحديث عن أهلها وأصلها وعرض قصّة امرأة عمران بمكانة مرموقة في القرآن[12].

وبيّن لوقا في مقدّمته أنّه استقى معلوماته من النّاس الذين كانوا منذ البدء معاينين، فقد ظهر جبريل لزكريا في الهيكل ليعلن ولادة يوحنا المعمدان (يحيى)، وظهر جبريل لمريم ليعلن ولادة المسيح « قال لها الملاك لا تخافي يا مريم لأنّك قد وجدت نعمة عند الله، وها أنت ستحبلين وتلدين ابنًا، وستسمّينه يسوع»[13].

وإذا ما عدنا إلى الرواية الواردة في المدوّنة العربية القديمة والمنسوبة إلى وهب بن منبه فقد وردت كما يأتي: « إنّ النخلة التي أُمرت مريم بهزّها كان لها نحو سبعين سنة، يابسة لم تثمر، فلمّا وضعت سيدنا عيسى عليه السلام بجانبها أورقت في الحال وأثمرت، وصار البلح رطبا من وقته معجزة له وكرامة لها، وأمرها بالهزّ تعاطيًا للأسباب فتساقط عليها الرطب كما أخبر الله تعالى، وقيل في المعنى: ألم ترَ أنّ الله تعالى قال لمريم وهزّي إليك الجذع تساقط الرطب، ولو شاء الله أدّى الجذع من غير هزّه خشية وكلّ شيء له سبب»[14].

إنّ الروايتين العربية والأمازيغية تؤكّدان أنّ هذه الشجرة ليست عادية، وإنّما هي نادرة وعجيبة في شكلها وفروعها وثمارها ورائحتها حتّى صارت مقدّسة ومزارًا للناس كلّ خميس.

إنّ المرأة تقوم في كلّ الثقافات رمزا للأرض فهذه وتلك حرث: إخصاب وإنجاب، فهما أصل الإنسان، هذه تحرث وتُبذر وتُسقى، وتلك تحمل وتلد وتضع، تلتحم الصورة بالصورة، المرأة بالأرض، كأنّك لا ترى إلا واحدة[15]. وهكذا تتحّد الأنثى والشجرة في كلّ ثقافة فتشكّلان ثنائيًا أزليًا لا تستقرّ الحياة إلا في ظلّه، فهما الحياة.

إنّ هذا الرمز الذي يجمع بين المرأة والأرض والشجرة نجده كثيرًا في حضارات مختلفة، فالقرآن الكريم يصوّر المرأة أرضًا خصبة صالحة للحرث والإنبات، فيقول: [**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**][16]. ويؤكّد المثل الأمازيغي ذلك، حيث يربط المرأة بالأرض والرجل بالسماء:

إقني يغلب ثمورث

أرقز يغلب ثمطوث(*)

وإذا ما عدنا إلى الحضارة المصرية القديمة فإنّ النخلة تتجلّى في صورة إلهة الخصـــب « وتبدو إلهة الخصب الفرعونية في صورة نخلة تمتدّ جذورها في باطن الأرض، ثمّ تنمو في انطلاق نحو النّور، وتمدّ يديها اللتين تحملان الماء المسكوب وألوانًا من الطعام »[17].

ونكتشف في المدوّنة العربية الدينية القديمة اقتران آدم بشجرة النخيل، منها قوله عليه السلام: « إنّ أباكم كان كالنخلة السحوق ستين ذراعًا»، وقوله: «أكرموا عمّتكم النخلة، فإنّها خلقت من بقيّة طينة آدم عليه السلام »[18].

ورد في النصوص الشفوية الأمازيغية المجموعة من الميدان ارتباط حواء بالنخلة، ولا يزال بالمنطقة مثل شعبي متداول أثناء حفل الزفاف، إذ يبادر أهل العروس على سبيل المداعبة والمناظرة قبل خروج العروس من دار أهلها بالقول: **لو كان أتزرم ثازدايث إوندنفكا**

فيردّ عليهم أهل العريس: **لو كان أتزرم إوضي إسدنهڤا** (*).

وهو ما يرمز إلى أنّ المرأة الأصيلة كشجرة النخيل لا يمكن أن ترتفع هامتها شامخة نحو العلا إلا إذا ضربت بجذورها في أعماق الأرض [**أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**][19]. وامتداد النخلة أو الشجرة في أعماق الأرض له مغزاه في تصوير

مصير الإنسان الذي تمتدّ جذوره في الأعماق. وتميّزت شجرة النخلة بورودها في القرآن الكريم في نظام ترتيبي كالآتي[20]:

النخلة	النخلة	النخلة	النخلة	النخلة	النخلة
الجنّة	الأرض	مريم	الرزق	الكلمة	المثل
الآخرة	الدنيا	الشخوص	المادّة	المعاني	الأدب

الجدول رقم (24)

وهكذا جاءت الروايتان العربية والأمازيغية منسجمتين معنًى ومبنًى إلى حدّ التطابق ليس على مستوى العنوان والاستهلال والاختتام والشخوص والأمكنة فحسب، بل حتّى على مستوى اللغة من مصطلحات وصيغ وصور ودلالات كأنّهما صادرتان عن مبدع واحد. وبلغ التماثل حدًا من الدقّة يتعذّر القول بترجمة إحداهما عن الأخرى، بل يمكن اعتبارهما نموذجًا رائعًا ومثالاً رائدًا في سياق الصلات والتلاقي بين الأدبين العربي والأمازيغي.

*- سجّلنا لهذه القصّة روايتين منظومتين: أولاهما بالأمازيغية، وهي الأطول، رواها مجيد هجير من شمال المنطقة، وثانيتهما بالعربية الدارجة، رواها عبد القادر هاشمي، من جنوب المنطقة، وترجمناها إلى العربية الفصحى.

1- الراوي: هجير مجيد.

2 - الراوي: هجير مجيد..

3 - سمير المرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، ص 126 نقلا.

4 - عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، ص 150.

5 - الشعرية، ص 68.

6 - الراوي: الهاشمي عبد السلام. انظر النصّ كاملاً في الملحق، ص 122.

7 - سورة مريم، الآيات: 17، 19، 23.

8 - انظر: وحيد السّعفي، العجيب الغريب في كتب تفسير القرآن، ص 306.

9 - سورة مريم، الآيتان: 27 و 28.

10 - فلاديمير بروب: مورفولوجية الخرافة، ص 116.

11 - انظر: إمام عبد الفتاح: معجم ديانات وأساطير العالم، مجلّد 3، ص 403.
أيضًا: صموئيل هنري: منعطف المخيّلة البشريّة، بحث في الأساطير، ص 138.

12 - انظر: وحيد السّعفي، العجيب الغريب في كتب تفسير القرآن، ص 296.

13 - العهد الجديد، إنجيل لوقا: الإصحاح الأوّل 2.

14 - الحنفي بن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص 156.

15 - انظر: وحيد السعفي: العجيب الغريب في كتب تفسير القرآن الكريم، ص 357.

16 - سورة البقرة، الآية: 223.

* - يترجم: - السماء تعلو على الأرض
- الرجل يسمو على المرأة

17 - نبيلة إبراهيم: الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، ص 247.

18 - إسماعيل بن كثير: قصص الأنبياء، دار التجليد الفنّي، د.ط، الجزائر، د.ت، ص 22.

* - يُترجم: - لوتُشاهدون عروسكم التي وهبناها لك كم هي طويلة وشامخة كالنخلة.
- لو تشاهدون الحفرة العميقة المهيّأة لتغرس فيها فستبقى راسخة كالطود.

19 - سورة إبراهيم، الآية: 24.

20 - انظر: السور: الرحمن (68)، الرعد (4)، مريم (25)، النحل (67)، إبراهيم (24)، الكهف (32).